الباب الثاني

مدخل لدراسة سورة الأنفال

2 ,1 نظرة إجمالية في أغراض السورة الكريمة .

2 ,2 موقع سورة الأنفال من القرآن المدني .

2 ,3 سبب تسمية السورة بالأنفال .

2 ,4 مكان نزول سورة الأنفال .

2 ,5 زمن نزول سورة الأنفال .

2 ,6 الظروف والملابسات التي نزلت فيها سورة الأنفال .

2 ,7 فضائل سورة الأنفال .

2 ,8 مناسبة سورة الأنفال لما قبلها وما بعدها .

2 ,9 عرض لأهم موضوعات سورة الأنفال .

2 ,10 أسلوب خطاب الآيات في سورة الأنفال .

2 ,11 مبدأ الجهاد في الإسلام .

2 ,12 جواز مسالمة الأعداء .

Prince of Songkla University Pattani Campus

1, 2 نظرة إجمالية في أغرض السورة الكريمة .

المحور الذي تدور عليه آيات السورة الكريمة هو موضوع الجهاد والغرض الأساسي الذي تدعو إليه هو الثبات في مواطن البأس وعدم الفرار من وجه العدو .

والموضوعات التي تدور حولها السورة الكريمة تتخلص فيما يلي :

أولاً _ عتاب للأصحاب رضوان الله عليهم .

ثانياً _ تذكيرهم بما تم لهم في المعركة .

ثالثاً _ تذكيرهم بالحال التي كانوا عليها من قبل وبما كان عليه المشركون من مكر وكيد وعناد .

رابعاً _ نداءات للأصحاب رضوان الله عليهم متكررة متتالية .

خامساً _ توجيه للأصحاب يتصل بشؤون الحرب وأمور القتال . (محمد السيد جبريل ،1983م: ص359) .

لقد افتتحت السورة الكريمة بموضوع الأنفال ، وأشارت إلى نوع من النزاع الذي وقع بين بعض الأصحاب في موضوع الأنفال ، وضعته الآيات الكريمة في صيغة سؤال أجابت عنه ، ثم خلصت إلى ذكر صفات المؤمنين مشيرة إلى أن هذه الصفات هي التي يجب أن يتصف بها الأصحاب ، وانتهى ههنا موضوع العتاب الأول ووجدت الآيات الكريمات سبيلها لتسلكه إلى العتاب الثاني بتشبيه الموقف الأول بالموقف الثاني ، ذلك أن الدافع واحد والضعف البشري هو العامل في الموقفين .

وامتزج العتاب في الموضوع الثاني بالتذكير بما وقع قبيل المعركة من كراهة فريق للخروج وخوف فريق من الموت حتى كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وجدال فريق مع الرسول ﷺ في موضع القتال .

وهنا تقارن الآيات الكريمات بين ما يريده هذا الإنسان إذا خلي وضعفه وما يريده الله منه يريد شهوات نفسه ويريد الله منه أن يرابط في سبيل دعوة الحق .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وبعد هذا التوجيه الكريم والعتاب الرحيم ، تأخذ الآيات الكريمات بالتذكير بالمنن التي تمت في معركة بدر ، الاستغاثة والاستجابة بالإمداد بالملائكة ، والآيات من عند الله تترى ، والاستجابة تبدأ بذكر الإمداد بالملائكة ، وتختم بأمرهم بتثبيت الذين آمنوا وضرب البنان ، ويختم هذا كله بأن هذا هو شأن الكافرين أن يذوقوا العذاب في الدنيا بيد المؤمنين ولهم في الآخرة عذاب النار . (محمد أمين المصري ، د.ت :ص 8) .

2, 2 موقع سورة الأنفال من القرآن المدني :

نجد كثيراً من العلماء يهتمون قضايا كل من القرآن النازل بمكة والقرآن النازل بالمدينة ، والطابع الذي غلب على القضايا التي عالجها كل من القرآن المكي والقرآن المدني ، وإن كان يجدر التنبيه هنا إلى أمر وهو أنه عندما يقال : هذه السورة مكية أو مدنية فليس معنى ذلك خلوها تماماً من آيات في غير ما عنون لها وإنما الحكم للأعم الأغلب. (الزركشي ،1391هـ : ص95) .

بعد هذه الإشارة نأتي إلى موضوع بحثنا وهو سورة الأنفال ، فإنها تأخذ وضعاً متميزاً بين القرآن النازل بالمدينة ، وذلك من جهات :

الأولى : أنها تعتبر أبرز مثل لهذا النوع ، فقد نزلت كلها وهي تعالج موضوعاً واحداً هو موضوع الحرب والسلام ، وما يتعلق بهما في الإسلام ، من خلال حدث من أهم أحداث الدعوة النبوية وهو غزوة بدر الكبرى .

فمعظم السور التي نزلت بعد لهجرة وإن كانت تعالج الأوضاع الاجتماعية وتقرر التكاليف الشرعية ، فإنها أحياناً يمزج ذلك بقضايا الأصول في العقيدة ، وإن كان هذا المزج ليس غريباً من ناحية جوهر الدعوة القرآنية ، أما سورة الأنفال فإنها قد تمحضت لتشريع أمور الجهاد حتى أرست أسسه ، بل كادت تفرغ من تقرير أصوله جملة .

Prince of Songkla University Pattani Campus

الثانية : أن العلماء قرروا أن هذه السورة نزلت بعد سورة البقرة ، وهذا الإطلاق ينبغي تخصيصه ، فإنها في الحقيقة نزلت بعد جزء من سورة البقرة ، وبعد نزولها نزل الكثير من سورة البقرة ، التي استغرق نزولها قريباً من تسع سنوات ، وعليه فسورة الأنفال نزلت _ إذا أردنا التحديد _ أثناء نزول سورة البقرة وليست بعدها . (محمد سيد طنطاوي، 1988م : 6/6) .

الثالثة : أن سورة الأنفال من السور القلائل التي عرف على وجه التحديد وقت ومكان نزولها ، لأنها سجلت غزوة يعتبر في الحقيقة حدثاً من أهم أحداث الإسلام ، بخلاف كثير من السور لا يعرف عن الكثير من آياتها التي لم ترتبط بوقائع محددة وقت نزوله على التحديد ، وإن عرف على الإجمال أنه نزل قبل الهجرة أو بعده . (محمد السيد جبريل، 1983م : ص 24) .

2 ,3 سبب تسمية سورة الأنفال :

ذكر الطاهر بن عاشور[1] في تفسيره (التحرير والتنوير) أنها تسمى بسورة الأنفال وسورة بدر ، والدليل على تسمية السورة بالأنفال وكتابة المصاحف بهذا الاسم . روي الواحدي[2] في أسباب النزول عن سعد بن أبي وقاص قال :" لما كان يوم بدر قُتِلَ أخي عمير وقَتَلتُ سعيد بن العاصي فأخذت سيفه فأتيت به النبي ﷺ فقال : "

---

[1] ولد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور ، الشهير بالطاهر بن عاشور ، بتونس في (1296هـ _ 1879 م) في أسرة علمية عريقة تمتد اصولها إلى بلاد الأندلس ، لم يلق الطاهر تمام حقه من الاهتمام به وباجتهاداته وأفكاره الإصلاحية ، وربما رجع ذلك لأن اجتهاداته تحارب الجمود العقلي والتقليد من جهة وتصطدم بالاستبداد من ناحية اخرى ، وكما أن افكاره تسعى للنهوض والتقدم وفق منهج إسلامي .

[2] هو أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ، صاحب التافسير المشهورة ، كان أستاذ عصرة في النحو والتفسير وله عدّة مؤلفات منها البسيط في تفسير القرآن ، وكذلك الوسيط والوجيز ، وله كتاب في أسباب النزول . توفي رحمه الله عن مرض طويل في جمادي الآخرة سنة 468هـ بمدينة نيسابور . (شمس الدين ابن خلكان ، د.ت : 303/3) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

اذهب القَيَض[3]فرجعتُ في ما لا يعلمه إلا الله قُتِل أخي وأُخِذَ سلبي فما جاوزت قريباً حتى نزلت سورة الأنفال " . (الواحدي ، د.ت : 155) . وأخرج البخاري عن سعيد بن جبير ، قال :" قلت لابن عباس سورة الأنفال " قال : " نزلت في بدر " .(البخاري، 1378هـ :حديث رقم 4278) . فباسم الأنفال عرفت بين المسلمين وبه كُتِبَت تسميتها في المصحف حين كُتبت أسماء السور في زمن الحجاج[4] . ولم يثبت في تسميتها حديث نبوي وإنما السبب الأرجح في تسميتها بسورة الأنفال هو أنها افتتحت بآية فيها اسم الأنفال ، ومن أجل أنها ذكر فيها حكم الأنفال . (محمد سيد طنطاوي، 1988م: 5/6) .

فالأنفال إذن كلمة عربية أصيلة معروفة لدى الناس بأنها اسم لإحدى سور القرآن وتحديداً السورة الثامنة حسب تسلسل السور القرآنية ، ولكن ما لا يعرفه الكثيرون هو ، ما معنى الأنفال ومتى وكيف استخدمت هذه المفردة اللغوية كفعل وممارسة لأول مرة ؟.

الأنفال تعني الغنائم[5] والأسلاب[6] ،وتشمل الأموال والممتلكات والنساء والفتيان ، وقد مارسها العرب قبل الإسلام حيث كانت الغزوات القبيلة هي الطابع السائد في الجزيرة العربية آنذاك ، فكانت القبائل تغزوا بعضها بعضاً ، تمارس القتل

---

[3] القيض بفتحتين وهو الموضع الذي تجمع فيه الغنائم .

[4] الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، كان مولده في سنة تسع وثلاثين وقيل في سنة أربعين من الهجرة ، نشأ شاباً لبيباً فصحياً بليغاً حافظاً للقرآن ، وعلى قدر شهرته كانت شهرة ما نسب إليه من مظالم ، حتى عدّه كثير من المؤرخين صورة مجسمة للظلم ، احتل الحجاج مكانة متميزة بين أعلام الإسلام ، وقد اختلف المؤرخون القدماء والمحدثون في شخصية الحجاج بين مدح وذم ، ولكن لا يختلف أحد في أنه اتبع أسلوباً حازماً مبالغاً فيه ، وأسرف في قتل الخارجين على الدولة ، توفي الحجاج بمدينة واسط في 21من رمضان سنة 95هـ .

[5] الغنيمة جمعها الغنائم وهي اسم لما يؤخذ من أموال الكفرة بقوة الغزاة ، وقهر الكفرة على وجه أن يكون فيه إعلاء كلمة الله تعالى ، وحكمه أن يخمَّس ، وسائره للغانمين خاصة . (الجرجاني ، 1995م : ص 209)

[6] السَّلب جمعها أسلاب وهو ما يسلب تقول " أخذ سَلَبَ القتيل " ، أي انتزعه من غيره قهراً . (المنجد ، د.ت : ص 343) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

والنهب وسبي النساء ، لكنهم لم يستخدموا كلمة الأنفال في غزواتهم تلك بل استخدموا معناها الصريح الذي هو الغنائم والأسلاب .

وأول من استخدم كلمة الأنفال كان رسول الله ﷺ وحتى قبل نزول سورة الأنفال ، بعد سنتين من هجرته إلى المدينة وبعد أن أصبح لديه جيش من المهاجرين والأنصار بدأ يتربص بقريش ويتبع أخبارها ، وعندما علم بأن قافلة تجارية فيها أموال قريش يقودها أبو سفيان[7] قادمة من الشام متجهة إلى مكة ، ندب إليه رجاله وقال لهم : " هذه عِير قريش فيها أموالهم وتجارتهم هلموا إليها لعل الله أن ينفلكموها أي يجعلها أنفالاً أي غنائم لكم ". (ابن هشام، 1955م : 607/2) .

وتسمى أيضاً بسورة بدر ، ففي الإتقان[8] أخرج أبو شيخ عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الأنفال قال:" تلك سورة بدر" .

وفائدة تسمية السورة أن تكون بما يميزها عن غيرها ، وأصل أسماء السور أن تكون بالوصف كقولهم السورة التي يذكر فيها كذا ، ثم شاع فحذفوا الموصول وعوضوا عنه الإضافة فقالوا سورة ذكر البقرة مثلاً ، ثم حذفوا المضاف وأقاموا المضاف إليه مقامه فقالوا سورة البقرة . أو أنهم لم يقدِّروا مضافاً وأضافوا السورة لما يذكر فيها لأدنى ملابسة . وما روي من حديث أنس مرفوعاً لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذلك القرآن كله ، ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها آل

---

[7] هو أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب رأس قريش ، تداركه الإسلام يوم الفتح صلح سلامه وكان من دهاة العرب ومن أهل الرأي والشرف فيهم ، أسن من الرسول صلى الله عليه وسلم بعشر سنين وعاش بعده عشرين سنة ، وما مات حتى رأى ولديه يزيد ثم معاوية أميرين على دمشق ، توفي بالمدينة سنة إحدى وثلاثين وله نحو التسعين رضي الله عنه .

[8] الحافظ جلال الدين هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن عثمان السيوطي ، ولد ليلة الأحد مستهل شهر رجب سنة 849 هجرية ، حفظ القرآن صغيراً لا يتجاوز الثماني سنوات ، تبحر الإمام السيوطي رحمه الله في علوم شتى فلقد ضرب في كل علم بسهم عظيم ، له مؤلفات كثيرة وجدت من الناس الإقبال عليها لما حوته من منافع وفوائد جليلة ، توفي رحمه الله في سحر ليلة الجمعة 19 جمادي الأولى سنة 911 هجرية .

Prince of Songkla University Pattani Campus

عمران وكذا القرآن كله . فقال أحمد بن حنبل[9] هو حديث منكر ، وذكره ابن الجوزي[10] في الموضوعات ، ولكن ابن حجر[11] أثبت صحته ، ويذكر عن ابن عمر أنه كان يقول مثل ذلك ولا يرفعه إلى النبي ﷺ. وكان الحجاج بن يوسف يمنع من يقول سورة كذا ويقول قل السورة التي يُذكَرُ فيها كذا ، ولم يشتهر هذا المنع ، ولهذا ترجم البخاري[12] في كتاب فضائل القرآن بقوله باب : مَن لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وسورة كذا وأخرج فيه أحاديث تدل على أنهم قالوا سورة البقرة ، سورة الفتح ، سورة النساء ، سورة الفرقان ، سورة براءة ، وبعضها من لفظ النبي ﷺ ، وعليه فللقائل أن يقول سورة البقرة أو التي يذكر فيها البقرة ، وأن يقول سورة والنجم وسورة النجم ،وقُرأت النجم وقُرأت والنجم ، كما جاءت هذه الإطلاقات في حديث السجود في سورة النجم عن ابن عباس [13].

---

[9] هو الإمام أحمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني المزوزي ، الإمام الشهير صاحب المسند ، ولد في بغداد سنة 164 هجرية وتنقل بين الحجاز واليمن ودمشق ، سمع من كبار المحدثين ونال قسطاً وافراً من العلم والمعرفة ، توفي الإمام يوم الجمعة سنة إحدى وأربعين ومائتين للهجرة ، وله من العمر سبع وسبعون سنة .

[10] هو عبد الرحمن بن علي بن محمد ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق ، كنيته أبو الفرج ولقبه جمال الدين واشتهر بابن الجوزي ، نشأ يتيماً ولما ترعرع حملته أمه إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر وهو خاله فاعتنى به وأسمعه الحديث وحفظ القرآن ، ولما بلغ رشده وفهم الطلب صار ينتقي من الشيوخ من هو أمثل من غيره وأكثر إفادة ، توفي رحمه الله ثاني عشر شهر رمضان سنة 597 هجرية ببغداد ودفن بباب حرب .

[11] هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد شهاب الدين أبو الفضل ، الشهير بابن حجر نسبة إلى آل حجر (وهم قوم يسكنون الجنوب الآخر على بلاد الجريد وأرضهم قابس) العسقلاني الأصل الكناني المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة ، الشافعي المذهب ، ولد في ثاني عشر شهر شعبان سنة 773 هجرية بمصر ونشأ بها يتيماً في كنف أحد أوصيائه إلى أن كبر ، حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين ، وولع في العلوم الأخرى ، ثم حبب الله إليه طلب الحديث فأقبل إليه وطلبه ، وارتحل إلى بلاد الشام والحجاز واليمن ومكة وما بين هذه النواحي.

[12] هو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة بن بردزبه الجعفي الملقب بالبخاري ، ولد ببخارى في شوال عام 194هـ ، نشأ يتيماً وتولت أمه تربيته ، وبدأ في طلب العلم وهو في العاشرة من عمره ، ولما بلغ العشرين بدأ رحلاته العلمية بعيداً عن موطنه . توفي البخاري عام 256هـ عن عمر يناهز 62 سنة في قرية خرتنك من قرى سمرقند ، ودفن بها .

[13] هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات ، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالفقه في الدين وعلم التأويل ، فاستجاب الله له ، فبلغ من ذلك مبلغاً ، حتى

Prince of Songkla University Pattani Campus

والظاهر أن الصحابة سموا بما حفظوه من النبي ﷺ أو أخذوا لها أشهر الأسماء التي كان الناس يعرفونها بها ولو كانت التسمية غير مأثورة ، وقد اشتهرت تسمية بعض السور في زمن النبي ﷺ وسمعها وأقرها وذلك يكفي في تصحيح التسمية .

والصحابة رضوان الله عليهم لم يكتبوا في المصحف أسماء السور بل اكتفوا بكتابة البسملة في مبدأ كل سورة علامة الفصل بين السورتين ، وإنما فعلوا ذلك كرهة أن يكتبوا في أثناء القرآن ما ليس بآية قرآنية ، فاختاروا البسملة لأنها مناسبة للافتتاح مع كونها آية من القرآن .

وكتبت أسماء السور في المصحف باطراد في عصر التابعين و لم ينكر عليهم . قال المازري[14] في شرح البرهان عن القاضي أبي بكر الباقلاني[15] : إن أسماء السور لما كُتبت في المصاحف كُتبت بخط آخر لتتميز عن القرآن ، وإن البسملة كانت مكتوبة في أوائل السور بخط لا يتميز عن الخط الذي كُتب به القرآن .

Prince of Songkla University Pattani Campus

=كان يسمى حبر القرآن لسعة علمه ، وهو أحد السبعة المكثرين من رواية الحديث وأحد العباد له الفقهاء ، مات بالطائف سنة 68 هـ . (ابن حجر ، 1398هـ : 330/2) .

[14] محمد المازري (530-000هـ) محمد بن مسلم بن محمد بن أبي بكر القرشي المازري أبو عبد الله ، متكلم ، أصولي ، صوفي ، نزح إلى إفريقية ، فأخذ بالقيروان الأصول عن أبي الطيب عبد المنعم وغيره ، ثم رحل إلى الحجاز ومصر ، واستقرَّ أخيراً بالإسكندرية ، وتوفي بها . ومن تصانيفه البيان في شرح البرهان لأبي المعالي الجويني ، والمهاد في شرح الإرشاد إلى تبيين قواعد الاعتقاد للجويني .

[15] هو أبو بكر محمد الطيب محمد بن محمد القاضي المعروف بابن الباقلاني ، والباقلاني نسبة إلى الباقلاء وبيعه ، وليد البصرة وساكن بغداد ، يعرّفه الخطيب البغدادي بأنه المتكلم على مذهب الأشعري ، سمع الحديث وكان محل ثقة ، فأما الكلام فكان أعرف الناس به ، وأحسنهم خاطرا ، وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم ، ويظهر من فهرس تأليفه أنه غزير الإنتاج وكثير التأليف فقد ذكر له 52 كتاباً .

2 ,4 مكان نزول سورة الأنفال :

نزلت سورة الأنفال وهي تسجل غزوة بدر الكبرى بدقائقها وتفاصيلها ، وكتب السيرة قد حددت تاريخ الغزوة على وجه اليقين وتضافرت نقولها على أنها حدثت في شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة .

أما أين نزلت السورة فالراجح أنها نزلت في المدينة أو في الطريق إليها عند العودة من بدر ، وإن كنت أميل إلى أن يكون مطلعها نزل ببدر نفسها ، وهذا كما علمنا أن رسول الله ﷺ قد أقام ببدر بعد المعركة ثلاثة أيام فليس من المستبعد أن تكون السورة كلها قد نزلت ببدر وليس مطلعها فحسب ، ويؤيد ذلك قول ابن إسحاق[16] :" فلما انقضى أمر بدر ... إلخ . ويؤيد ذلك أيضاً ما نقله ابن كثير[17] في سبب نزوله حيث أورد حديثاً رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا فَالْتَقَى النَّاسُ فَهَزَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ فَأَكَبَّتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحْوُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُصِيبُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ نَحْنُ حَوَيْنَاهَا وَجَمَعْنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ نَفَيْنَا عَنْهَا الْعَدُوَّ وَهَزَمْنَاهُمْ وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخِفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً وَاشْتَغَلْنَا بِهِ فَنَزَلَتْ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَوَاقٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .(تفسير ابن كثير، 1969م 283/2) .

---

[16] هو محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار وقال ابن كوثان أبو بكر ويقال أبو عبد الله المدني القرشي . مولى قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ولد ابن اسحاق في المدينة وترجع كتب التاريخ مولده سنة 85 هجرية ، وأما وفاته فهي محصورة بين سنة 153 هجرية .

وقبل أن نترك هذه النقطة نحب أن نتناول بالتحقيق أمراً يتعلق ببعض آيات السورة من جهة وقت النزول .

فقد ورد في بعض الروايات ، أن سورة الأنفال كلها مدنية إلا الآيات من 30 _ 36 فهي مكية ، وهذه الآيات من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ . (سورة الأنفال : الآيات من 30_ 36) .

ولعل الذي دعا إلى هذه الرواية أن هذه الآيات تتحدث عن أمور حدثت بمكة بل ذهب البعض إلى إيراد سبب لنزولها بمكة بالفعل وخاصة الآية الأولى (الآلوسي ، د.ت : 157/9) .

ولكن ابن كثير[18] ذكر هذه الرواية ثم أنكرها إنكاراً شديداً حيث قال :" وقال أبو جعفر بن جرير[19] حدثني محمد ابن إسماعيل المصري المعروف بالوساوس أخبرنا عبد الحميد بن أبي داود عن أبي جريج عن عطاء عن عبيد عن عمير عن المطلب ابن أبي وداعة أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ ما يأتمر بك قومك ؟ قال : يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني ، فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : ربي ، قال : نعم الرب ربك فاستوص به خيراً ، قال : أنا أستوصي به ، بل هو يستوصي بي ، قال : فنزلت : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 30) وذكر أبي طالب في هذا غريب

---

[18] هو الإمام الحافظ المؤرخ المفسر عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن ضوّ بن كثير بن ضوّ بن زرع القيسي القرشي الدمشقي ، واشتهر بلقب ابن كثير منسوباً إلى جده ، ولد بمجدل (وهي قرية شرقي بصرى من أعمال دمشق) في سنة 701هـ ، حفظ القرآن ، وبرع في التفسير والفقه والنحو ، توفي رحمه الله في يوم الخميس 26 من شهر شعبان سنة 774هـ في دمشق .

[19] هو محمد بن جرير ابن يزيد بن كثير ، الإمام العالم المجتهد ، عالم العصر أبو جعفر الطبري ، صاحب التصانيف البديعة ، من أهل آمل طبرستان ، مولده سنة 224هـ أكثر الترحال ولقي نبلاء الرجال وكان من أفراد الدهر علماً وذكاء .

Prince of Songkla University Pattani Campus

جداً بل منكر لأن هذه الآية مدنية ، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجتروا عليه بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه ويقوم بأعبائه . (ابن كثير، 1969م : 302/2) .

والذي نطمئن إليه أن هذه الآيات مدنية ، أما حديثها عن أمور حدثت بمكة فذلك كان قبيل التذكير بنعم الله تعالى على نبيه وعلى المسلمين وامتنانه عليهم بالقوة والتمكين بعد الضعف والخوف .

2,5 زمن نزول سورة الأنفال :

قال ابن إسحاق : " وخرج رسول الله في ليالي مضت من شهر رمضان في أصحابه وقد حددها ابن هشام[20] بيوم الاثنين لثمان خلون من شهر رمضان " . هذا في تحديد الشهر . وأيضاً هناك كتب السيرة المعاصرين الذين حددوا شهر نزول سورة الأنفال مثل الشيخ محمد الغزالي[21]، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي[22] .

---

[20] هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفي سنة 218هـ ، نشأ بالبصرة ثم نزل مصر ، وفقد كان رحمه الله إماماً في النحو و اللغة العربية ، ولابن هشام أكثر من مؤلف في أكثر من فن ، فله في غير أثره في سيرة ابن اسحاق ، شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب ، وكتاب التيجان لمعرفة ملوك الزمان ، وغير ذلك من المؤلفات .(ابن هشام ، 1375هـ : 17/1) .

[21] هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي الملقب بـ " حجة الإسلام " فيلسوف إسلامي ، متصوف له كتب جامعة كثيرة بلغت نحو مائتي مؤلف ، من أشهرها " إحياء علوم الدين " و " فقه السيرة " طبع عام 1408هـ الذي حدد فيه تاريخ غزوة بدر صفحة 237 . توفي رحمه الله سنة 505هـ .(السبكي ، د.ت : 101/4) . (الزركلي ، 1984م : 22/7) .

[22] محمد سعيد رمضان البوطي ، ولد عام 1929م في قرية جيلكا لجزيرو بوطان الواقعة داخل حدود تركيا في شمال العراق ، أنهى دراسته الثانوية الشرعية في معهد الإسلامي بدمشق ، وحصل على الشهادة العالمية والدكتوراه في أصول الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر ، زاول العديد من المناصب في جامعة دمشق ، وهو الآن عضو في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمّان ، له ما لايقل من عن أربعين مؤلفاً في علوم شتى.

Prince of Songkla University Pattani Campus

إذا كان الأمر كذلك فإننا بهذا التحديد التاريخي الواقعي نستطيع أن نقطع بأن نزول سورة الأنفال أو صدرها على الأقل في أعقاب المعركة مباشرة ، أي في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، ذلك لأن مطلع السورة هو سؤال عن حكم الغنائم ، وكان قد حدث نزاع عليها فور حيازتها بعد انجلاء المعركة ونزل صدر السورة برد أمرها إلى الله ورسوله ، أما بقية السورة فقد نزلت في غضون الأيام التالية لأن آخر السورة يحكى أمر أسرى بدر وما حدث فيه من اجتهاد وكلها أحداث متقاربة . قال ابن إسحاق : " فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن الأنفال بأسرها . (ابن هشام ، 1955م : 134/2) .

2 ,6 الظروف والملابسات التي نزلت فيها سورة الأنفال :

عندما دخل الإسلام المدينة ، بُدئ باعتناقه من قبل بعض أهلها الذين وفدوا في الموسم وقابلوا النبي ، واستمراراً لهجرة الكثير من المسلمين إليها ، يأمرهم نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام ، وبإتمام هجرته ﷺ مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه إليها ، وما صاحب ذلك كله من بدء البناء وإقامة أركان الدولة الجديدة كله يتم في ظروف بلغت الغاية من الحرج والضيق .

فالإسلام وأهله بل ونبيه مطاردون من أحزاب الكفر في كل موقع ، فهذا رسول الله ﷺ يطارده أعداءه مئات الأميال ليغتالوه ، والمسلمون خرجوا بليل وتركوا ورائهم ديارهم وأموالهم وكل قوام عيشهم ، ومنها بدأوا يعدون الانطلاق في اتجاهين :

اتجاه إلى إقامة كيان الدولة ، ولقد فعل الرسول ﷺ ذلك ببناء المسجد الذي كان أول عمل قصد إليه فور قدومه وقبل أن يستريح من عناء السفر ، ليكون منطلق المسلمين منه إلى كل عمل باسم الله وفي سبيل الله ، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ليقيم نسيجاً اجتماعياً جديداً سداه ولحمته الحب في الله والتراحم في الله ، وإعلاء رابطة الدين فوق كل رابطة ، ثم بالمعاهدة التي عقدها مع يهود المدينة ليؤمن

Prince of Songkla University Pattani Campus

ظهره عند الانطلاق في المرحلة التالية ، وهذا الاتجاه كان بمثابة التقاط الأنفاس ونفض غبار الاضطهاد والإيذاء اللذين عانوا منهما في المرحلة السابقة . (عبد السلام هاشم حافظ ، 1995م : ص 187) .

وفي نفس الوقت كان الانطلاق للاتجاه الآخر ، وهو الاستعداد لنشر دين الله تحقيقاً لعمومية الرسالة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة سبأ : الآية 28) . فكان الاستعداد لمواجهة موجات العدوان المتلاحقة التي يستعد الكفر ليذيقهم بها موجة بعد أخرى .

وبدأ النبي ﷺ بناء على توجيه الوحي ، وتمشياً مع الأمر الواقع ، وحفاظاً حق الله في نشر دينه وحق الحياة للمسلمين ، بدأ يدرب الصحابة على فنون الحرب ، ويشترك معهم في التمارين والمناورات ، ولم يلبث أن بدأت السرايا العسكرية المسلحة تجوب أطراف الصحراء التي تلي المدينة في مناوشات الكفر ، هي بمثابة تجارب وتدريبات للقاءات المرتقبة .

لقد حبب النبي ﷺ أصحابه في التدريب على القتال ، وكان قدوة لهم في ذلك ، فكان يعلم الرمي بالسهام وينظم المسابقات فيه ، ويرغب في إتقانه ويحفز الشباب على ذلك . فعن سَلَمَةَ بْنَ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ قَالَ فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ قَالُوا كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ * (البخاري ،1378هـ : حديث رقم 2648)[23].

ولم يمضي وقت طويل ، فما هو إلا عام وبعض عام حتى حدث اللقاء الأول في مواجهة عسكرية بين الحق والباطل في غزوة بدر الكبرى ، ولن نخوض في الحديث عنها الآن ، فلهذا موضعه بعد ذلك ،ولكن ما نود قوله هنا : هو أن الإسلام

---

[23] أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير .

Prince of Songkla University Pattani Campus

بهذه الغزوة دخل مرحلة جديدة غيرت من نظرة سكان الجزيرة إليه وإلى اتباعه ، أما أتباعه أنفسهم فقد بدأوا عهداً زاهراً افتتحو بنصر عزيز منَّ الله عليهم به .

وعقب الغزوة والنصر ، ووسط هذه الأحداث نزلت سورة الأنفال تسجِّل هذه الغزوة وتسوق منّة الله ونعمته في مدد الملائكة أثناء الحرب ، وتضع تشريعات الحرب والسلام والغنائم والأسرى وغير ذلك ، فكانت السورة بذلك معلماً بارزاً على طريق الدعوة الإسلامية يقف على نهاية فترة الصبر والثبات والمعاناة ، وبداية فترة الانطلاق والجهاد للمسلمين يحدوهم الأمل الدائم في نصر الله عز وجل .

ولا نحسب أن هناك في تاريخ الإسلام فترة تتميز بما تميزت به هذه الفترة وما تلتها من أحداث ، قلبت موازين القوة في العالم المعاصر وقتئذ ، ومكنت بعون من الله لانطلاق شهادة التوحيد واسم الله الذي ظل يتردد من وقتها في جنبات الأرض ، وسيظل بإذن الله حتى قيام الساعة . (مقبل بن هادي الوادعي ،2001م : ص 68) .

2 ,7 فضائل سورة الأنفال :

قبل أن نورد حديثاً يختص بفضيلة سورة الأنفال دعنا ننظر إلى معنى كلمة الفضيلة بمنظور أبعد وبمفهوم أوسع عمَّا هو معروف بالنسبة للسورة ، فسورة الأنفال اهتمت بأحكام الأسرى والغنائم ونزلت بعد غزوة بدر ، وهي إحدى السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع وخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ، وقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب الغزوات ، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين إتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب وأحكام الأسرى والغنائم .

وأما عن الأحاديث الواردة بفضائل سورة الأنفال ، فهناك بعض الأحاديث الصحيحة الواردة في فضل سورة الأنفال ، فعن سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ قَالَ أَخْبَرَنَا عِمْرَانُ الْقَطَّانُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ الْهُذَلِيِّ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ

Prince of Songkla University Pattani Campus

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :" أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ[24] وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ[25] وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ[26] وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ[27] " . (أحمد بن حنبل ،1398هـ : حديث رقم 16368) [28].

وهناك بعض الأحاديث الضعيفة الواردة في فضل سورة الأنفال ، و لم نورد الأحاديث الضعيفة لكي يؤخذ بها ، وإنما ذكرناها لكي يعلم الناس أنها ضعيفة .

عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال :" مَن قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع وشاهد يوم القيامة أنه بُرئ من النفاق ، وأعطي من الأجر بعدد كل منافق ومنافقة في دار الدنيا عشر حسنات ، ومحي عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وكان العرش وحملته يصلون عليه أيام حياته في الدنيا " . أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان ، والواحدي ، والزمخشري ، والحديث موضوع[29] .

2 ,8 مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها :

يهتم كثير من المفسرين بإبراز أوجه المناسبات بين سور القرآن المتجاورة في المصحف ، وهذا أمر طيب يبين مدى التناسق في القرآن الكريم تفصيلاً متمثلاً في الآيات وإجمالاً متمثلاً في السور ، ولكن ذلك تبرز أهميته بصورة أوضح عند من يقول بأن ترتيب السور في المصحف توفيقي وليس اجتهادياً وهو ما نرجحه وما درج عليه علماء الأمة وسلفها الصالح .

---

[24] السبع : هو سورة الفاتحة لأن عدد آياتها سبع آية .

[25] المئين : السور التي آياتها تقارب المائة .

[26] المثاني : التي تتكر قراءتها في كل ركعة من الصلاة .

[27] المفصل : السور من ق وقيل الحجرات إلى آخر المصحف .

[28] وأخرجه البيهقي في الشعب ، وقال الشيخ الألباني : الحديث بمجموع طرقه صحيح . (السلسلة الاحاديث الصحيحة 469/3) .

[29] انظر تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ، لأبي الحسن علي بن محمد بن عرّاق الكناني ، كتاب فضائل القرآن الفصل الأول 285/1 . والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، لمحمد بن علي الشوكاني ، باب فضائل القرآن فصل 28ص453

Prince of Songkla University Pattani Campus

ومن أبرز المفسرين الذين اهتموا بذكر المناسبات بين السور الإمام شهاب الدين الآلوسي[30] رحمه الله في كتابه روح المعاني ، والإمام بدر الدين الزركشي[31] في البرهان في علوم القرآن ، والإمام السيوطي[32] في الإتقان في علوم القرآن ، وغيرهم من الأئمة وسوف ننقل هنا ما ذكره الإمام شهاب الدين الآلوسي من أوجه المناسبة بين سورة الأنفال وسورة الأعراف التي قبلها ، وبين سورة براءة التي بعدها ، ثم نردف ذلك بما منَّ الله تعالى به من أوجه أخرى .

قال الآلوسي : " ووجه مناسبتها لسورة الأعراف أن فيها (وأمر بالعرف) وفي هذه كثير من أفراد المأمور به ، وفي الأعراف ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم ، وفي الأنفال ذكر النبي وذكر ما جرى بينه وبين قومه ، وقد فصلّ سبحانه في الأعراف قصص آل فرعون وإضرابهم وما حل بهم ، وأجمل في الأنفال ذلك فقال سبحانه وتعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 52) . وأشار في الأعراف إلى سؤ زعم الكفار في القرآن بقوله : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ (سورة الأعراف : الآية 203) . وصرح سبحانه وتعالى بذلك في الأنفال بقوله جلا وعلا : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا

---

[30] هو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي شهاب الدين ، أبو الثناء أديب من المجددين ، من أهل بغداد ، ولد الآلوسي في الكَرخ (موضع بالعراق) سنة 1217هـ الموافق 1802م . كان الآلوسي رحمه الله شيخ العلماء في العراق ، سلفي الاعتقاد مجتهداً نادر من نوادر الأيام ، جمع كثيراً من ا لعلوم حتى أصبح علامة في المنقول والمعقول ، محدثاً لا يجاري ، ومفسراً لكتاب الله لا يباري .

[31] هو الإمام بدر الدين الزركشي ، من أبرز علماء عصره ، وكان شافعي المذهب ، أشتهر بالزهد والورع ، تلقى العلم من شيوخ عصره من أبرزهم الحافظ ابن كثير ، تبوأ مكانة مرموقة بين علماء عصره ، توفي رحمه الله سنة 794هـ . مخلفاً أكثر من ثلاثين مؤلفاً في الأصول والقواعد والفروع والأحكام والعقيدة والأدب ، وله كتب في التفسير والحديث ، ويعد كتابه " البرهان في علوم القرآن " من أهم كتبه وأشهرها .

[32] هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن عثمان السيوطي ، ولد ليلة الأحد مستهل شهر رجب سنة 849 هـ ، حفظ القرآن وهو ابن ثماني سنوات وجلس مدرساً للعلم وهو ابن سبعة عشر عاماً وافتى وهو ابن سبعة وعشرين عاماً ، تبحر السيوطي في علوم شتى فلقد ضرب في كل علم بسهم عظيم ، توفي رحمه الله في سحر ليلة الجمعة سنة 911هـ في منزله . مخلفاً عدد كبيراً من مؤلفاته فقد أوصل فيها إلى 538 مؤلفاً .

Prince of Songkla University Pattani Campus

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 31) . وبيَّن جل شأنه فيما تقدم أن القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون وأردف سبحانه وتعالى ذلك الأمر بالاستماع له والأمر بذكره تعالى ، وفي الأنفال يبيِّن جل وعلا حال المؤمنين عند تلاوته وحالهم إذا ذكر الله تبارك اسمه بقوله عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 2) إلى غير ذلك من المناسبات . (الآلوسي ، د.ت : 158/9) .

ويقول صاحب المراغي : مناسبتها لسورة الأعراف أنها في بيان أحوال النبي ﷺ مع قومه ، وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل من أقوامهم . (المراغي : 1974م : 161/3) .

ونضيف هنا أن سورة الأعراف ذكرت أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وأنه لا يعلم الغيب : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية 188) ، وذكرت سورة الأنفال تطبيقاً عملياً لهذه الحقائق عندما أخرجه الله تعالى للعير ظاهراً وهو يدبر لقاء الحق والباطل لينصر جنده المؤمنين مع كراهة بعض المؤمنين لهذا اللقاء : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 5_8) . (الزركشي ، 1391هـ : 131/1_132) .

ثم أن سورة الأعراف ذكرت رجوع المؤمن إلى الله وتوبته واستغفاره إذا غفل ولو بعض الشيء فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ . (سورة الأعراف : الآية 201) وذكرت سورة الأنفال أنه حين الاختلاف في قسمة الغنائم أعتبر ذلك أمر لا يليق بأن يكون مجال الاهتمام

الأول عند المجاهدين ، فتوجه إليهم الأمر الذي امتثلوا له فقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 1) ، وأيضاً ذكرت سورة الأعراف طبيعة الملائكة من الطاعة المطلقة لله تعالى وعدم الاستكبار عند تنفيذ أمره فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾.
(سورة الأعراف : الآية 206) ، وفي سورة الأنفال أمر إلهي يصدر للملائكة بعون المسلمين في القتال وتنفيذ لهذا الأمر يترتب عليه نصر المؤمنين بأمر الله فقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ . (سورة الأنفال : الآية 12).
(إبراهيم بن عمر البقاعي ، د.ت : 6/1) .

إلى غير ذلك من أوجه المناسبات التي تبلغ عند تلمسها في مواضعها حد المكثرة مما يدل على التناسق والإحكام في القرآن جملة وتفصيلا ، وذلك مظهر من مظاهر الإعجاز لهذا الكتاب الكريم .

وأما مناسبة سورة الأنفال بالتي بعدها وهي سورة براءة ، فنجد أن المتأمل في الآيات التي ختمت بها سورة الأنفال والآيات التي بدأت بها سورة التوبة يجد أن بينها مناسبة عظيمة جعلت بعض الصحابة رضوان الله عليهم يظنون أنها سورة واحدة ، وقد ذكر غير واحد من أهل الاختصاص بعض هذه المناسبات ، ومن ذلك أن مناسبة أولها لآخر سورة الأنفال هو الدعوة إلى البراءة مّمن يخشى نقضه للعهود .

قال الباقلاني : ولما كانت مناسبة أولها _الداعي إلى البراءة مّمن يخشى نقضه للعهود _ لآية الأنفال ، وقدمت الأنفال مع قصرها على براءة مع طولها واشتباه أمرها على الصحابة في كونها سورة مستقلة أو بعض السورة ، فكان ما ذكر من البراءة والتوالي شرحاً لآخر الأنفال . (أبو الحسن ابن عمر الباقلاني، 1995م: 256/3) .
وقال السيوطي : صدر سورة براءة تفصيل لإجمال قوله : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً

فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 58). وقال الآلوسي في تفسيره : ذكر في سورة الأنفال العهود وفي سورة التوبة ذكر نقض لتلك العهود أو نبذها . (الالوسي ، د.ت : 26/10) . وأمر في الأنفال بالإعداد للقتال فقال تعالى : " ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال : الآية 60) . ونَعَى في التوبة على المنافقين عدم الإعداد ، وآيات الأمر بالقتال متصلة كما نرى في كلتا السورتان ، وختم في الأنفال بإيجاب أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية ، وصرّح جل شأنه في هذه المعنى فقال تعالى : ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.(سورة التوبة : الآية 1) (الآلوسي ، د.ت : 26/10) .

ثم بين السورتين تناسب من وجه آخر ، وهو أنه سبحانه وتعالى تولى قسمة الأنفال وجعل خمسها خمسة أخماس ، وفي براءة قسم الصدقات وجعلها لثمانية أصناف . (السيوطي ، 1978م : ص107) .

والحق أن الذي يقرأ السورتين بتأمل وتدبر يراهما تعطيانه ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجملة لدعوة النبي ﷺوجهاده إلى أن أتم الله له النصر .

فمثلاً عندما نقرأ سورة الأنفال نراها تتحدث عن حالة المؤمنين قبل الهجرة كما في قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الأنفال : الآية 26) .

كما تتحدث عن المكر السيئ الذي صدر عن المشركين والذي كان من أسباب الهجرة كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ . (سورة الأنفال : الآية 30) . ثم نراها تفيض في الحديث عن غزوة بدر ، وتشير إلى ما ظهر من المنافقين فيها إذ يقول تعالى : ﴿يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

Prince of Sonakia University Pattani Campus

اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . (سورة الأنفال : الآية 49) . وإلى ما حدث من اليهود من نقض العهود فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (سورة الأنفال : الاية 58) . أما سورة التوبة فنراها تذكر المسلمين بالنصر الذي منحه الله لهم في مواطن كثيرة فقال تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾. (سورة التوبة : الاية 25) . كما تصف بالتفصيل مواقف المنافقين في غزوة تبوك وغيرها . (محمد رشيد رضا ، 1947 : 175/10) .

ولعل قيام السورتين الكريمتين بإعطاء القارئ ما يشبه أن يكون صورة تاريخية مجملة للدعوة الإسلامية هو الحكمة في وضعها مقترنين وفي تسميتها بالقرينتين .

قال القرطبي[33] : " كانتا تدعيان القرينتين ، فوجب أن تجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى ، للوصف الذي لزمهما من الإقتران ورسول الله ﷺ . (القرطبي ،1996م : 63/8) .

وورود سورة التوبة بعد الأنفال له حكمة هي أن الأنفال تحدثت عن أول غزوة للمسلمين وهي غزوة بدر والتوبة تتحدث عن غزوة تبوك وهي آخر غزوة في عهد الرسول ﷺحتى نستشعر الفرق في المجتمع الإسلامي بين الغزوتين وكأنها تعطي صورة تحليلية للمجتمع ، فكأنها سورة واحدة بدايتها نصر أمَّة ونهايتها تمكين أمَّة .

[33] هو أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي ، المفسر رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب وتوفي ودفن بها في ليلة الاثنين 9 ن شهر شوال 671هـ رحمه الله ، كان للمؤلف كتب عدّة أشهرها كتابه في التفسير وقد أسماه جامع أحكام القرآن . (القرطبي ، 1996م : 1/ 1) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

9, 2 عرض لأهم موضوعات سورة الأنفال :

عند قراءتي لكتب التفاسير لأبرز العلماء وجدت أن أكثر هذه الكتب عند تناولها في تفسير أية أو سورة معينة فإنهم يميلون إلى العرض التقليدي للسورة عرضاً عاماً يسرد موضوعاتها في ترتيب وإجمال ليعطي القارئ صورة عامة لما عالجته السورة من قضايا ، ووجدت أيضاً أن هناك كتب من التفاسير تتجه في عرض موضوعات السورة في إطار دراسة تفصيلية مستفيضة للقضايا الكبرى لإبراز جوانبها .

لذا فإن سورة الأنفال فيما تناولته من قضايا وما سجلته من أحداث أرست تشريعات أساسية لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة ، هذه التشريعات بينت المفهوم الإسلامي فيما يتعلق بقضيتي الحرب والسلام ، وكانت تلك هي البنية الأساسية في موضوعات السورة من جهة ، ومن جهة أخرى فقد جاء ذلك كله من خلال تسجيل السورة لأحداث غزوة بدر الكبرى .

ومن أهم الموضوعات والتوجيهات السامية والآداب العالية والتشريعات الحكيمة التي تناولتها السورة فهي كالآتية :

1) لقد افتتحت السورة الكريمة ببيان أن قسمة الأنفال مردها إلى الله ورسوله ، وأن على المؤمنين أن يذعنوا لما يفعله فيها رسولهمﷺ ، ثم وصف المؤمنين الصادقين أكمل وصف ، وبشَّرهم بأسمى المنازل ، وأرفع الدرجات .

2) وبعد الحديث الطيب عن أوصاف المؤمنين الصادقين ، تبدأ السورة في الحديث عن حال بعض الذين اشتركوا في غزوة بدر ، وكيف أنهم كرهوا القتال في أول الأمر ، لأنهم لم يخرجوا من أجله وإنما خرجوا من أجل الحصول على التجارة التي قدم بها مشركو قريش من بلاد الشام ، لكن الله أراد أن يعلمهم وغيرهم أن الخير فيما قدره ، لا فيما يقدرون ويريدون .

3) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألواناً من البشارات التي تُشعِر المؤمنين بأن الله تعالى قد أجب لهم دعائهم ، وأنه سبحانه سيجعل النصر في هذه المعركة حليفاً لهم ،

Prince of Songkla University Pattani Campus

ومن مظاهر هذه التبشيرات أن الله تعالى أمدهم بألف من الملائكة مردفين ، وأمدهم بالنعاس ليكون مصدر طمأنينة لقلوبهم ، وأمدهم بمياه الأمطار ليتطهروا بها ، وأمدهم قبل ذلك وبعده بعونه الذي جعلهم يقبلون على قتال أعدائهم بقلوب مملوءة بالإقدام والشجاعة .

4) ثم وجهت السورة الكريمة خمس نداءات إلى المؤمنين ، وأرشدتهم في كل واحد منهم إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم .

فقد أمرتهم في النداء الأول بالثبات في وجوه أعدائهم ونهتهم عن الفرار منهم ، وهدّدت مَن يولهم دبره بسوء المصير ، وأخبرتهم بأن الله معهم ما داموا معتمدين عليه ، ومستجيبين لما يدعوهم إليه .

وأمرتهم في النداء الثاني بطاعة الله ورسوله وحذرتهم من المعصية ، ومن التشبه بالكافرين الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون .

وأمرتهم في النداء الثالث بالمسارعة إلى أداء ما كلفوا به من تكاليف فيها سعادتهم وفلاحهم ، وخوفهم من ارتكاب ذنوب لا يحيق شرها بالذين ارتكبوها وحدهم ، وإنما يعمهم وغيرهم مّمن رأوا المنكر فلم يعملوا على تغييره .

ونهتم في النداء الرابع عن خيانة الله ورسوله ، أي عن ترك فرائض الله وعن هجرة سنة رسوله ، وحذرتهم من أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن طاعة الله وعن أداء واجباته.

ثم بشرتهم في النداء الخمس بأنهم إذا ما اتقوا الله حق تقاته ، فإنه سبحانه سيرزقهم الهداية والنصر والنجاة من كل مكروه .

5) ثم أخذت السورة بعد ذلك في تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ليزدادوا له شكرا ، وفي تصوير ما عليه الكافرين من جهل وعناد وخسران ، فحكت ما قالوا في شأن القرآن من كذب ومكابرة ، وحكت استهزاءهم بالدين ، وحكت ما كانوا يقومون به من تصفيق ولغو عند قراءة القرآن ، وحكت مسارعتهم إلى إنفاق أموالهم ، لا في وجه الخير ، ولكن في وجوه الشر التي ستكون عاقبتها الخسران وسوء المصير .

Prince of Songkla University Pattani Campus

6) وبعد أن افتتحت السورة الكريمة بالحديث المجمل عن الغنائم وساقت في أعقابه ما ساقت من توجيه وإرشاد وترغيب وترهيب ، عادت السورة إلى الحديث عن الغنائم ، ففصلت ما أجملته في مطلعها ، وذكرت المؤمنين بنعم أخرى منحهم الله إياه في بدر ، وذلك أنه سبحانه وتعالى هيّأ لهم المكان المناسب لقتال أعدائهم وجعل اللقاء الحاسم بين الفريقين بدون موعد سابق .

7) ثم أمر الله تعالى المؤمنين بالثبات عند لقائهم لأعدائهم ، وبالإكثار من ذكره ، وبالطاعة التامة له ولرسوله ، بالابتعاد عن التنازع والخلاف ، ثم ينهاهم عن التشبيه بالمرائين والمتكبرين والمغرورين الذين زيّن لهم الشيطان أعمالهم .

8) ثم تمضي السورة الكريمة في تصوير رذائل الكافرين ، وفي تشجيع المؤمنين على قتالهم ، وإعداد العدّة لدحرهم وتشريدهم ما داموا مستمرين على كفرهم وخيانتهم ، فإن جنحوا للسلم ومالوا إلى المصالحة والمهادنة فاقبل منهم ذلك واحترس من خداعهم وغدرهم .

9) ثم أنتلقت السورة إلى الحديث عن أسرى غزوة بدر من المشركين ، فبينت ما كان يجب على الرسول ﷺ والمؤمنين في شأنهم ، وعاتبتهم لإيثارهم أخذ الفداء على ما عند الله من ثواب عظيم ، وأباحت لهم أن يأكلوا مما غنموه فإنه حلال طيب .

10) وإذا كانت السورة قد تحدثت في أوائلها عن صفات المؤمنين الصادقين ، وعن حال الذين كرهوا الخروج القتال في بدر ، فإنها قد تحدثت في ختامها أيضاً عن أصناف المؤمنين ، فمدحت المهاجرين السابقين ، ومدحت الأنصار الذين آووا ونصروا ، لأنهم قد اشتركوا جميعاً في بذل أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله ، ثم بينت ما يجب عليهم نحو غيرهم من المؤمنين الذين لم يهاجروا .

هذا عرض مجمل وموجز لما اشتملت عليه سورة الأنفال من أهم الأغراض والتوجيهات السامية والتشريعات الحكيمة التي تناولتها السورة .

Prince of Songkla University Pattani Campus

10, 2 أسلوب خطاب الآيات في سورة الأنفال :

شاء الله أن يبعث في العرب رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويطهرهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعث فيهم رسوله المصطفى ﷺ وهم أفصح الأمم ، وأعرفها بفنون القول ، وسحر البيان ، وأسرار البلاغة ، حتى كانت لهم أسواق ومواسم سنوية بضاعتها النظم والنثر والخطابة[34] ، لأن من حكمة الله تعالى ألا يبعث رسولاً إلا بلسان قومه فقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.(سورة إبراهيم : الآية 4)

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة[35] كل نبي من جنس ما برع فيه قومه ، جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحداهم ، كي تكون الآية غالبة ، والحجة بالغة ، والمعجزة قائمة ، فموسى عليه الصلاة والسلام كانت معجزته السحر لبراعة قومه فيه . وكان الطب عادة قوم عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءت معجزته من جنس الطب الذي مهروا فيه ، فكان عيسى عليه الصلاة والسلام يبرئ الأكمة والأبرص والأعمى ويحيي الموتى بإذن الله .ولما كانت الفصاحة والبلاغة عادة قوم محمد ﷺ فقد شاءت قدرة الله أن تكون معجزة الرسول ﷺ من جنس الفن الذي برع فيه قومه وبلغوا فيه الذروة ، فجاء القرآن في أعلى درجات البيان ، من حيث لفظه ونظمه وإيقاعه ، فنقض عادتهم ، وخرق مألوفهم ، لتقوم عليه الحجة ، ويظهر لهم صدق محمد ﷺ .

كان العرب أهل فصاحة وبلاغة ، يحكمون زمام اللغة ويعرفون أسرارها ومخبوءها ، ويتفننون في تطريز أساليبهم ببديعها ، ويتباهون في تدبيج أشعارهم بكل ألوان التعبير الجميل ، فجاء القرآن الكريم عربياً فصيحاً مفصلاً دقيقاً يخاطب فطرة العرب

---

[34] النظم تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل . النثر خلاف النظم من الكلام . الخطابة هو قياس مركب من مقدمات أو مظنونه ، من شخص معتقد فيه ، والغرض ترغيب الناس فيما ينفعهم . (الجرجاني 1995م : ص 99، 241) .

[35] المعجزة هي الأمر الخارق للعادة الداعية إلى الخير والسعادة المقرونة بدعوى النبوة ، يقصد بها إظهار صدق مَن ادّعى أنه رسول الله . (المناوي ، 1410هـ : ص 665) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

بلسانهم ، وباللغة التي يألفونها ، وبالكلمات التي يجيدون حبكها ونظمها ، ليحصل لهم التمكن من المعارضة ثم يعجزون عنها ، فتقام عليهم الحجة ، يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. (سورة النحل : الآية 103) . ورغم أن القرآن جاء على سنن العرب وأساليبهم في التعبير والنظم ، غير أنه ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ونسق حروفه ، ما أذهلهم عن أنفسهم ، فكل ما في القرآن من مجاز واستعارة وكناية وتشبيه وتمثيل وتقديم وتأخير وفصل ووصل ، إلى آخر ما يرد هذا المجال ، في الشعر العربي مثله ، ومع ذلك فإن القرآن يقف وحده على هذه القمة المنقطعة ، دون أن يستطيع الشعر مع ثبوت الشبه البلاغي أن يدنو إلى مواقع السفح من قمة إعجازه وخلوده . (الزركشي ، د.ت : 122/2-123) .

وفي سورة الأنفال والذي نحن في صددها الآن سوف نتناول بعضاً من هذا الأسلوب الرباني ومن هذا الإعجاز البلاغي فتأمل معي أخي القارئ ما يلي :

1) ففي قصة الأنفال فقد كان أسلوب الخطاب في الآية الكريمة أسلوب السؤال الوارد في مقدمة الآية ، وأن تلك الصيغة هي إحدى الصيغ التشريعية في القرآن الكريم ، سواء في أمور الشريعة في ميادينها الواسعة ، أم فيما يتعلق بتقرير بعض المسائل العقيدة ، فجاء القرآن الكريم إما يكون ابتداء من غير ظروف تفرض أو سؤال يرد ، كفرض الصيام والحج ، وإما أن يكون لظروف تُعرَض وملابسات تتطلب تشريعاً جديداً ،كتشريع كفارة الظهار ، وقد يكون هذا التشريع رداً على سؤال يوجه إلى النبي ﷺ لمعرفة حكم كما حدث في كثير من مسائل الشريعة وكان السائلون فيها من المسلمين .

2) وفي قصة غزوة بدر فقد كان أسلوب الخطاب في الآية الكريمة هي أسلوب استعرض وقائع الغزوة ، ويبدأ بالأحداث الأول عندما جدّ الجدُّ وأوشك اللقاء ، أما مقدمات الخروج فقد تضمنتها قوله تعالى : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 5) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

3) ونجد أيضاً من بين تلك الأساليب الخطابية التي تضمنتها السورة أسلوب توجيه الخطاب ، فقد خاطب سبحانه وتعالى الملائكة من قوله تعالى : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 1) .

4) ونجد أيضاً أسلوب النداء حيث وجهت السورة الكريمة خمس نداءات إلى المؤمنين ، أرشدهم في كل واحد منهم إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم :

النداء الأول : أمرهم بالثبات في وجوه أعدائهم ، ونهتهم عن الفرار منهم . وذلك في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾. (سورة الأنفال : الآية 15) .

النداء الثاني : أمرهم بطاعة الله ورسوله وتحذير من الإعراض عنه . وذلك في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ . (سورة الأنفال : الآية 20) .

النداء الثالث : أمرهم بالاستجابة لله ورسوله . وذلك في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾. (سورة الأنفال : الآية 24).

النداء الرابع : نهتهم عن خيانة الله ورسوله . وذلك في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . (سورة الأنفال : الآية 27)

النداء الخامس : حرضتهم على التقوى ، وذكر ثمرة من أعظم ثمراتها الفرقان وذلك في قوله تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .(سورة الأنفال : الآية 29) . (محمد أمين المصري ، د.ت : ص9).

5) وأيضاً تميزت في السورة أسلوب الحكاية ، فقد حكت الآيات الكريمات في أكثر من موضع عن المواقف التالية :

Prince of Songkla University Pattani Campus

حكت عمَّ قالوه في شأن القرآن من كذب ومكابرة ، وحكت عن استهزائهم بالدين ، وإمعانهم في الجحود ، وتعجلهم بالعذاب ، وحكت أيضاً عمَّ كانوا يقومون به من تصفيق ولغو عند قراءة القرآن ، حتى يشغل الناس عن سماعه ، وحكت عن مسارعتهم إلى إنفاق أموالهم ، لا في وجوه الخير ، ولكن في وجوه الشر التي ستكون عاقبتها الخسران وسوء المصير . تدبر هذه الآيات وما اشتملت عليه من معاني وعبر ، حيث يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (سورة الأنفال : الآيات 31,32,33)

11, 2 مبدأ الجهاد في الإسلام .

ينطلق مبدأ الجهاد في الإسلام من عمومية هذا الدين الحنيف ، تلك العمومية جاءت بها آيات القرآن الكريم في أكثر من موضع في معرض الحديث عن شمولية رسالة النبي ﷺ والتي وضحها الرسول عليه السلام نفسه في معرض تعديده لنعم الله تعالى عليه .

ففي القرآن الكريم ، تظهر هذه العالمية من خلال تقويم دين الإسلام لأديان الأرض جميعاً بظهوره عليها ظهوراً لا يليق من المشركين محبة ولا نصرة حيث قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . (سورة الصف : الآية 9) وتظهر بإطلاق لفظ الناس على المرسل إليهم دون تحديد لجنسهم أو وطنهم أو لغتهم :﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . (سورة النساء : الآية 79) وتظهر بما يدل عليها من لفظ واضح في معرض بيان طبيعة شخصية الرسول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : الآية 107) وتظهر بالتحديد الكامل لهذه العالمية تحديداً لا يحتمل الجدل من جهة ولا

Prince of Songkla University Pattani Campus

التأويل من جهة أخرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة سبأ : الآية 28) .

والرسول ﷺ يظهر ما أمنَّ الله تعالى به عليه من نعم أختصه بها ، فيذكر من بينها طبيعة العالمية والعمومية في رسالته ﷺ فيقول : " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ " [36]. (البخاري ، 1378هـ : 70/1) ، ويقول أيضاً صلوات الله عليه وسلامه في هذا الخصوص : " إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ " [37]. (البخاري ، 1378هـ : 270/2).

هذه العالمية التي وضحتها آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ كانت هي المنطق لمبدأ الجهاد في الإسلام ، وبعد معرفة هذه الحقيقة فإن قضية الجهاد تحتاج إلى تقرير وتفصيل .(محمد جبريل ، 1983م : ص 36) .

إذا أطلقت لفظة الجهاد فإنها تنصرف في الذهن إلى حرب الأعداء وقتالهم ، وإذا كان ذلك أحد معاني الجهاد الأصلية في اللغة ، بل إذا كان أبرز معانيه فإنه ليس المعنى الوحيد للفظ ، فاللفظ يعني بذل الجهد ، أي بذل غاية ما في الوسع لأي عمل وبكل الوسائل .

يقول ابن منظور[38] في كتابه لسان العرب : " الجهاد محاربة الأعداء ، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل ، والجهاد المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء ".(ابن منظور،1992م : 710/1).

---

[36] أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله ، في كتاب الصلاة 70/1 .

[37] أخرجه البخاري عن أبي هريرة ، في كتاب المناقب 270/2 .

[38] أبو الفضل جمال الدين ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري الرويفعي الإفريقي من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري ، ولد في محرم 630هـ في القاهرة على الأرجح ، تتلمذ على يد عبد الرحمن بن الطفيل ومرتضى بن

فالجهاد في سبيل الله مفهوم واسع جداً ، لأنه مصطلح خاص من مصطلحات الشريعة الإسلامية ، ويراد به استنفاد الجهد في سبيل الله ، فإن دين الله يتطلب أن يضحي المؤمن في سبيله بنفسه ، وعلاقاته ، وأهوائه ، وكفاياته ، ومؤهلاته ، ورخاء عيشه ، ولذائذ حياته كلها ، لأنه لا يتم بدون ذلك إتباعه لدينه وخدمته له . (العمري ، 1990م : ص 79) .

ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله فريضة من فرائض الدين الإسلامي ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ . (سورة الحج :الآية 78) وقال عز وجل : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .(سورة المائدة : الآية 35) . وينادي نبيه ﷺ بقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . (سورة التحريم :الآية 9) .

ويكفينا من اللغة ذلك لنعرف أن الجهاد يراد به في الإسلام حرب أعداء المسلمين وهم المشركون ، فعلى أي أساس يقوم ؟ ولكن قبل الإجابة على هذا السؤال يحسن أن نجيب على سؤال آخر ، لماذا نناقش هذه القضية الآن ؟ والإجابة على ذلك تتمثل في أنه في الآونة الأخيرة ، وُجِدَ من كُتَّاب المسلمين ومفكريهم مَن حاول إبراز حلقات الجهاد في التاريخ الإسلامي كله على أنها حروب دفاعية دخلها الإسلام مضطراً عندما كان يهاجم أهله بالفعل مرة أو يتوقع هجوم أعدائهم عليهم مرة أخرى . (الحسيني أبو فرجه ، 1985م : 73/1) .

وذلك خطأ كبير ، وقع فيه من وقع إما لفهم خاطئ لطبيعة الجهاد في الإسلام ، وذلك بتمثيله بالحروب البشرية أو قياسية عليها وهي تلك الحروب المعاصرة ، وإما انخداعاً بهجوم استشراقي ماكر أخذ يضرب على وتر قهر الإسلام لمخالفيه وضرب رقابهم بسيوف التسلط ما لم يقبلوا الدخول فيه . (محمد جبريل ،1983م : ص 36).

حاتم وغيرهم ، وكان عالماً في الفقه واللغة ، من أشهر أعماله وأكبرها هو " لسان العرب " عشرون مجلداً ، جمع فيها أمهات كتب اللغة ، وعمل على اختصار وتلخيص عدد هائل من كتب الأدب المطولة ، عُمي في آخر عمره وتوفي في مصر عام 711هـ .

Prince of Songkla University Pattani Campus

ونرى بعض المفكرين من أعداء الإسلام الذين يعرضون الحق ويكذبونه من المستشرقين[39] وغيرهم يحاولون أن يطبعوا الجهاد الإسلامي بطابع القوة ، وتصوير الدين الإسلامي للعالم بأنه الدين الذي يمارس عملية سفك الدماء ،وقتل الآمنين من الأبرياء بحجة الدعوة إلى الله وأن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، إمعاناً في إبعاد الإنسانية عن الإسلام وانطلاقاً من قاعدة الحقد الأسود ضد الإسلام والمسلمين ، ومن ذلك ما كتبه باول شمتز[40] الألماني مدعياً أن الإسلام قام بالقوة والسيف حيث قال :

(1) إن محمداً لم يؤسس ديناً تطهيرياً بل أسس دولة شملت كل ما يعرف للدولة من نظم .

(2) إن محمداً أقام جيشاً قوياً ، ودربه وسلحه وأعده إعداداً كاملاً ليدافع عن الدين الجديد ، وليفتح به الأقطار ليتمكن من نشر دعوته فيها .

وقال بهذه النظرية أيضاً _ فإن فلوتن[41] _ حيث قال : " إن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف ، وأن النبي ﷺ وأصحابه سلكوا مسلك الإكراه ، فكان الفتح الإسلامي على أيديهم قهر وبطش ، لا فتح قناعة وفكر . (البوطي ، 1995م : ص 352) .

ونحن نرد على هذه الإفتراءآت الكاذبة ، والدعاوى الباطلة ، بهذا التشريع الحكيم الذي على أساسه شرع الجهاد في سبيل الله ، وبهذا المنهج القرآني الذي رسمه الله لنبيه ﷺ بالدعوة إليه سبحانه حيث أمر الله نبيه بالدعوة بهذا المنهج القرآني ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (سورة النحل : الآية 125) .

---

[39] المستشرق هو العالم باللغات والآداب والعلوم الشرقية . (المنجد ، 1960م : ص 384) .

[40] باول شمتز Chemintz (1855-1900م) مستشرق ألماني الجنسية في صدر منه عدّة كتب تتناول عن الإسلام وعنوان الكتابه الذي ترجم " الإسلام قوة الغد العالمية " نقله من الألمانية د/ محمد أسامة ، 1995م : ص 156) . (المنجد في اللغة والأعلام ، 1960 م : ص 336) .

[41] فإن فلوتن Vloten (1866- 1903 م) مستشرق هولندي نشر " مفاتيح العلوم " للخوارزمي ، و " البخلاء " و " المحاسن " للجاحظ . (المنجد في اللغة والأعلام ، 1960م : ص 417) .

Prince of Songkla University Pattani Campus

ولقد سلك الرسول ﷺ هذا المنهج القرآني في الدعوة إلى الله في مكة يدعو أهله وقومه وهو صابر على أذى القوم ، وكان أهل مكة يجادلونه ، والرسول عليه الصلاة والسلام ، يعظهم باللين والرفق ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، حتى آذوه وحاصروه في الشعب ثلاثة أعوام ، واتهموا الرسول ﷺ بالشعر ، والسحر والكذب والجنون ، وأعماهم التعصب ، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وظل الرسول ﷺ على ذلك حتى كانت الهجرة من مكة إلى المدينة ، ومن ساعتها بدأت حرب جدل بين النبي ﷺ واليهود أشد لدداً وأكبر مكراً من حرب الجدل بينه وبين قريش في مكة . (محمود محمد زيادة ، 1991م : 222/1) .

حيث كان الجدل أسلوباً من أساليب الدعوة ، فإننا نعرف بذلك مدى الخطأ الذي يزعم أصحابه أن الإسلام قد انتشر بالسيف والحرب والسلاح ، وهل يكون السيف عقيدة ويغرس في قلوب الناس فكرة ، ولو كان الإسلام كذلك لما انتظر الرسول ﷺ هذه الفترة كلها بمكة حتى يأذن الله بالقتال ، ولكن الرسول ﷺ وقف مع المعاندين والجاحدين موقف الطبيب الحاذق يجرب كل داء ، ولا يلجأ إلى المبضع إلا إذا فشل الدواء وتعين السلاح ، فقد يئس وأنذر ، ولاقى من العنت الكثير ، حتى أخرج من دياره ، فكان لابد من الجهاد في سبيل الله حتى تبلغ الدعوة هدفها ، وحتى يستطيع الرسول ﷺ أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وحتى تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفرو هي السفلى ، ووقائع الجهاد الإسلامي تؤكد ما شرعت له حيث كانت دفاعاً محضاً ، والدليل على ذلك أن تسلسلها كان خاضعاً لتشريعها وكان الجهاد دفعاً للظلم ، وحماية للدعوة ، وتمكيناً للدعاة من مباشرة الدعوة . (محمود يوسف كريت ، د.ت : ص 341) . ولم يحدث قط أن كان للاضطهاد والقهر فهذا مخالف للقاعدة الإسلامية ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ . (سورة البقرة : الآية 256) .

وتصحيح هذا الخطأ لا يتم إلا بإزالة هذا الوهم الخادع من عقول المدافعين وليس المستشرقين المهاجمين ، لأن هؤلاء ما عزفوا على هذا الوتر إلا وهم يعرفون ما يفعلون ولأيّ غرض يهدفون ذلك من جهة ، ومن وجهة أخرى ببيان خطأ

Prince of Songkla University Pattani Campus

قياس الجهاد الإسلامي بالحروب المعاصرة ، وذلك كله بالتالي لا يتأتى إلا بشرح قضية الجهاد في الإسلام شرحاً مستقلاً .

ولكي يسهل ضبط المسألة وحتى لا يتفرع بنا البحث بعيداً عن الغرض الأصلي ، فإنه يحسن التركيز على عدة نقاط يتضح الموضوع من خلالها .

النقطة الأولى : وهي تتعلق بخطأ قياس الجهاد في الإسلام على الحروب البشرية التي عرفها الناس قديماً وحديثاً ، فمن المعروف أن تلك الحروب تنشب بين الناس إما دفاعاً أو هجوماً ، ولكن لكل من الهجوم والدفاع بواعث ضمنية متعددة .

فالجيوش تخوض الحروب بأمر من قيادتها السياسية دفاعاً ، إما عن أرض يعتدى عليها ، أو عن نظام للحكم يراد الحفاظ عليه ، أو عن نظريات اقتصادية أو سياسية وهي ما يعبر عنها حديثاً بالإيديولوجيات ، إلى غير ذلك مما يندرج تحت هذا النوع .

وكذلك تخوض الجيوش الحروب بأمر من نفس القيادات هجوماً يبتغي من ورائه احتلال أرض لنهب خيرها واغتصاب رزق أهلها أو تغير نمط الحياة في مجتمع لصياغته وفق إرادة المعتدي ، أو نشر أفكار وعقائد معينة ، كما في الحروب التي تشنها الدول الشيوعية على غيرها بغية فرض التبعية ، أو يكون ذلك لمجرد الإحساس بالتفوق والقوة الغاشمة التي يصحبها ممارسة لأبشع أنواع الظلم أو التجبر كما حدث في الحروب النازي ، أو تكون تلك الحروب لدرء خطر متوقع أو تأديب تطاول من الغير أو خوف من عدوان مستقبل ، وتسمى الأخيرة بالحرب الوقائية. (علي محمد جريشة،[42]2000م)

تلك على وجه التقريب أنواع الحروب التي عرفها البشر ، فهل الجهاد الإسلامي نوع من هذه الحروب ... كلا .

إن الجهاد في الإسلام وسيلة من وسائل خدمة الدين لنشره بين الناس جميعاً ، فقد سبق وأن بيّنا أن رسالة الإسلام عامة ، وكل من ينتسب إليها ويصبح من أهلها يكون مكلفاً بإبلاغها إلى كل من يستطيع من الناس .

---

[42] د/ علي محمد جريشة[42] ـ مقال بعنوان أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي مقال من الموقع . www.islamweb.net

Prince of Songkla University Pattani Campus

لكن هذا البلاغ لا يأخذ الصورة الفردية على مستوى دول العالم وأقطاره وإنما يأخذ صور أكبر تتمثل في دعوة الدول الإسلامية لشعوب الأرض إلى الانضواء تحت راية الدين الحنيف ، وهنا تكون المواجهة وهنا يكون الجهاد .

فليس هناك شعب في الأرض يعيش بدون قوة تحكمه وتوجهه وتسير أموره ، والدعوة الإسلامية عندما تريد أن تشق طريقها إلى الجماهير تواجه بهذه القوى الحاكمة التي غالباً ما يدفعها الحرص على مصالحها الذاتية إلى الوقوف في وجهه الدعوة لمنعها من الوصول إلى جماهير شعوبها ، وفي بساطة تبرز عندئذ دوافع الجهاد في الإسلام متمثلة في وجوب إزاحة هذه القوى الحاكمة المتسلطة التي لا يقف إنكارها ولا تقتصر معارضتها على مجرد عدم الإذعان ، وإنما يتعدى الأمر إلى تعبئة الجيوش لمنع الدعوة الإسلامية من الوصول إلى الناس بقوة السلاح . (حسين شحاته[43] ، 2002م) .

ويتضح الأمر أكثر ببيان أن الحروب البشرية الأخرى إنما تبنى على بواعث خارجية ، أما الجهاد في الإسلام فإنه ينطلق من ذاتية الحركة الإسلامية الدافعة إلى وجوب نشر الدعوة ، واعتبار ذلك جزءاً لا ينفصل عنها ، ولقد قرّر القرآن الكريم ذلك بأوضح عبارة وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 39) .

فالجهاد في الإسلام إذاً ليس حرباً يدفع بها خطر عدوان على الأرض أو الوطن ، وليس دفاعاً عن مميزات طبقة من الناس ، وليس قتالاً بقصد الاستعلاء أو التسلط أو استغلال الأرض أو البشر ، وإنما هو مبادرة مستمرة لنشر الدين عن طريق إزالة هذه القوى ، فإذا زالت هذه القوى تغيرت هذه الوسائل وبه الجهاد بالبيان لعرض حقائق الدين على العامة ودعوتهم إلى الاقتناع به من غير إكراه للضمائر على اعتناقه بقطع الرقاب ، ولا نجد أحداً يعرض عن هذه الدعوة بسمو مبادئها متى استقامت فطرته ، وتخلص من التعصب المقيت لعقائد موروثة . (زغلول النجار[44] ، 1998م) .

---

[43] أ . د / حسين شحاته ــ عنوان المقال الجهاد بالمال ودوره في نصر قضايا المسلمين ــ الموقع على الإنترنت : www.Islamonline.com

[44] د/ زغلول النجار ــ مقال بعنوان تفسير سورة الحج ــ الموقع على الإنترنت : www.nooran.org

Prince of Songkla University Pattani Campus

النقطة الثانية : وهي تتعلق برفع اللبس الذي انخدع بسببه البعض فحاول أن يدفع عن الإسلام شبهة انتشاره بالسيف ، ووقع في الفخ الذي نصبه المستشرقون ، فإذا به يجرد الإسلام من حركته الذاتية الداعية إلى الانطلاق بدلاً من أن يخدمه ببيان حقيقته .

فالجهاد كما سبق ، إنما يواجه لغرض واحد هو إزاحة القوى المتسلطة الحاكمة أيّاً كان نوعها أو اسمها لتخلى بين العقيدة الإسلامية وبين الناس من غير معوقات ، فإذا مازالت هذه القوى وارتفعت هذه الموانع انتهى دور السيف وبدأ دور اللسان والبيان .

لقد خلط هؤلاء المستشرقون عن عمد بين العمل على رفع المعوقات المتمثلة في القوى المتسلطة من طريق الدعوة وبين عرض مبادئ الدين وعقيدته على الناس فجعلوا منها شيئاً واحداً ، وراحوا يروجون أن الإسلام لا يعتمد في عرض عقيدته على الجماهير على وضوح هذه العقيدة وبساطتها ، وإنما يعتمد على البطش والتخريف . (ليلى بيومي[45] ، 2003م) .

وإذا اتضح هذا الخلط فدفع الشبهة لا يحتاج عندئذ إلى وصف الجهاد بالدفاع أو الهجوم ، وإنما يتحقق ببيان أن العقائد لا تغرس أبداً بقوة السلاح ، وإلا تحولت جماهير الأقطار التي فتحها الإسلام كلها إلى جيوش من المنافقين تتحين الفرص لتنفض عن نفسها هذا القهر والإكراه ، وذلك يخالف الحقيقة والواقع .

يقول الأستاذ سيد قطب[46] رحمه الله : " وقد غشي على أفكار الباحثين العصريين المهزومين ، ذلك التصور الغربي لطبيعة الدين وأنه مجرد عقيدة في

---

[45] د/ ليلى بيومي[45] ــ مقال موقف البابا تاريخ طويل من سؤ النية والشعوبية ــ مترجم ، الموقع على الإنترنت : www.Islammemo.com

[46] هو سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي ، ولد في قرية " موشة " وهي إحدى قرى محافظة أسيوط بتاريخ 1906/10/9م ، تلقى دراسته الابتدائية في قريته ، ثم سافر إلى القاهرة ونال منها شهادة الكفاءة للتعليم الأوّلي ، في سنة 1966م اعتقل بتهمة التآمر على قلب الحكم واغتيال جمال عبد الناصر ، صدر حكم الإعدام على سيد قطب بتاريخ 1966/8/21م ، وقد أعدم سيد قطب في فجر يوم 1966/8/29م.

Prince of Songkla University Pattani Campus

الضمير لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة ، ومن ثم يكون الجهاد للدين جهاداً لغرض العقيدة على الضمير.

ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام ، فالإسلام منهج الله للحياة البشرية وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية ، وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ، فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام ، أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتناع في ظل النظام العام بعد رفع جميع المؤثرات ، ومن ثم يختلف الأمر من أساسه وتصبح له صورة جديدة كاملة " . (سيد قطب ، 1402هـ : 143/9) .

النقطة الثالثة : فالجهاد ـ كما سبق أن تقرر في اللغة ـ هو المبالغة واستفراغ في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء ، فالبيان والإقناع إذن هو الوجه الآخر للجهاد ، والوجهان معاً : الحرب واللسان وسيلتان مختلفتان لا تحل أحدهما محل الأخرى .

فأمام القوى الغاشمة الحاكمة لا تغنى وسيلة البيان شيء ، بل لا بد من استخدام نفس الوسائل ، فهذا موضع السيف لقهر هذه القوى ورفع تسلطها عن شعوبها . وأمام جماهير الناس لا ينبغي أن يشهر السيف ، وتجعل وسيلة النجاة من حده النطق بالشهادة ، فذلك لا يزرع عقيدة صادقة ، بل لا بد أن يعرض الدين نفسه بعقيدته الواضحة ، وشريعته السمحة ، ومبادئه العادلة ، أن الجهاد باللسان يتمثل في دفع العقائد الباطلة ومواجهتها بالحجة والبرهان ومناقشة سدنتها والمنتفعين بها ومن يدعون إليها ، وكشف زيفها وضلالها ، وتلك مرحلة تلي مرحلة تحطيم القوة المانعة المتجبرة بقوة السيف والسنان . (محمد جبريل ، 1983م : ص 41) .

ذلك هو مبدأ الجهاد في الإسلام ، إنه ينطلق من ذاتية الدعوة الإسلامية ووجوب نشرها بين الناس جميعاً ، تحقيقاً لعموميتها وعالميتها التي جاءت بها آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ .

وفي سورة الأنفال في غزوة بدر الكبرى وهي بداية المواجهة وأولى حلقات الجهاد تتجلى هذه الحقيقة ، فلم يخرج النبي ﷺ بالقلة المؤمنة يدافع عن بلد

Prince of Songkla University Pattani Campus

يتهدده خطر داهم من العدو ، و لم يخرج لواحد من الأسباب التي تثور من أجلها حروب اليوم ، بل خرج في أول الأمر طلباً لعير قريش لأسباب سوف تأتي في موضعها ، ولكن المهم أن العير قد أفلتت ، وبإفلاتها كان بإمكان النبي ﷺ أن يعود بمن خرج معه إلى المدينة ، فلم يكن هناك من الدواعي المعروفة لخوض الحروب داعٍ واحد . (محمد عبده يماني ، د.ت : ص 114) .

فالجيش الذي ساقته قريش لإنقاذ القافلة برغم إفلاتها أعلن أبرز قواده وهو أبو جهل عن الغرض من إقامته ببدر وهو اللهو والطعام والشراب وعزف القيعان ، والهدف من ذلك كله إبراز القوة المهابة لإخافة العرب جميعاً وليس محمداً ﷺ فحسب ، و لم يرد على لسان أحد منهم فكرة مداهمة المدينة ، ومن ثم ينتفي الباعث الدفاعي ، وأيضاً لم يكن مألوفاً أن يجازف عدد قليل بشن حرب إذا كان هدفها هجومياً ، إذ لابد أن يكون عددهم أكثر وقوتهم أشد ، وإنما برز في هذا الموطن دافع الجهاد الإسلامي واضحاً جلياً ، فهذا هو العدو متمثلاً في القوة المتسلطة من رؤوس الكفر في قريش ، جاءوا يستعلنون بكفرهم ويتباهون بقوتهم وقد تمثل ذلك في قول النبي ﷺ قبيل المعركة : (ابن هشام ، 1955م : 192/2) . :"اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسلك". وهنا تنطلق ذاتية الإسلام لتخضد هذه الشوكة تمهيداً لاستئصالها حتى يخلى هؤلاء بين النبي ﷺ وبين سائر القبائل يدعوهم إلى دين الله من غير معوق من قوة أو جبروت ، بل المبادئ والعقيدة وحدها في مقابلة العقول المجردة وبعد ذلك : من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

لعل مبدأ الجهاد في الإسلام قد اتضح من خلال هذه النقاط في أهدافه ووسائله وفي بواعثه ، ولعل الشبهة المثارة حول قضية الدفاع أو الهجوم في حروب الإسلام ــ وقد فرضها المستشرقون على الفكر الإسلامي ــ قد زالت .

وقبل أن نختم هذا الموضوع نحب أن ننقل عبارة الأستاذ سيد قطب رحمه الله نرى فيها تلخيصاً لمعظم ما سبق بيانه ، فيقول : " والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن (الجهاد في الإسلام) ليدفعوا عن الإسلام هذا الاتهام يخلطون بين منهج هذا

Prince of Songkla University Pattani Campus

الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه ، التي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله ، وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهم ــ ومن أجل هذا التخليط ــ وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم (الحرب الدفاعية) ، والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ولا بواعثها ولا تكييفها كذلك ، إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته ، ودوره في هذه الأرض ، وأهدافه العليا التي قررها الله ، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتم الرسالات . (سيد قطب ، 1402 : 1443/9) .

12, 2 جواز مسالمة الأعداء :

اتضح مما سبق أن قضية الجهاد في الإسلام ليست أمراً موقوتاً أو مقيداً بما يعرض من مسببات ، ولكنها إحدى قضايا الجوهر في العقدية الإسلامية تتسم به العقيدة نفسها من الديمومة والاستمرارية ، فما دام في الأرض شعوب لا تدين بالإسلام فعلى الدولة المسلمة أن تقوم بواجب الدعوة تجاه هذه الشعوب وأن تشق طريقها إليهم بالجهاد لإزالة معوقات الوصول متمثلة في القوى الحاكمة التي تحول بين هدى الله وجماهير الناس.

وما من دولة في الأرض إلا ويجب أن يكون للدولة الإسلامية منها موقف واضح محدد رسمته الشريعة الإسلامية ، فدول الأرض جميعاً في تحيد المواقف أمام عصبة الإسلام ورجاله ودولته سواء ، فكل دولة إما مسلمة لها ما للمسلمين وعليها ما عليهم تنضوي تحت لوائهم ، وإما أهل الكتاب يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون ، وإما أهل حرب وعداوة للإسلام وأهله ، وهؤلاء لا مهادنة لهم ، فالإسلام أو الإحاطة بالرؤوس الكافرة المتحكمة لتخلى بين شعوبها ودعوة الإسلام .

Prince of Songkla University Pattani Campus

تلك هي قضية الجهاد ببساطة ، وتعرف سلفاً أن من يقرأ هذا الكلام ثم ينظر حوله إلى الدول الإسلامية متمثلة في أقطارها العديدة في الأرض وما وصل إليه حال المسلمين فيها ، سوف ينتابه ــ إن حسن الظن ــ شعور بالإحباط أو اليأس وهو يرى ضعفاً وهواناً شديدين قد حلا بهذه الديار .

وهنا تبرز قضية مسالمة الأعداء ، هل هي أمر جائز ؟ وهل ذلك يكون على الدوام ؟ أو أنه أمر وقتي يزول بزوال الحاجة إليه ؟ .

وثم يجدر التنبيه إلى أن مناقشة هذه القضية ينبغي ألا تتم إلا من خلال الأسس الإسلامية ذاتها ، ولن يكون هناك صعوبة في ذلك ، فهي من القضايا التي عنى القرآن الكريم بتقريرها في وضوح ، ودور الكاتب الذي يقدمها لا يعدو أن يكون فهماً للنصوص ، ودراسة لها ، ومقارنة بينها ، وربطاً لجوانبها .

فمسالمة الأعداء هي مهادنتهم ووضع الحرب وقبول الصلح على وضع لا يقبله الإسلام على أنه الوضع النهائي ــ وإلا فليس هناك مشكلة ــ وعليه فالمسألة عند علاجها تعالج من خلال نصين قرآنيين : أولهما ورد في سورة (الأنفال) موضوع بحثنا ، والآخر ورد في سورة (محمد) ﷺ .

فقد ورد في الأولى قوله تعالى : " ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 61) .

وورد في الثانية قوله تبارك وتعالى : " ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (سورة محمد : الآية 35) .

وقبل عرض المسألة نود التنبيه إلى أن التعجل بها إنما كان من باب إردافها بقضية الجهاد التي سبقتها ليعلم المسلم ما يريده الدين منه في كل موقع وفي كل وقت ، وسوف نعرض لها مرة أخرى عند تفسير الآية السابقة من سورة الأنفال حتى يكتمل بحثها من جميع الجوانب .

سبق أن قلنا أن الدولة المسلمة مطالبة دوماً بأن يكون لها مبادرات مستمرة ترسم فيها خريطة العالم وفق المواقف المعلنة من دوله وحكوماته ، وأن هدفها

Prince of Songkla University Pattani Campus

النهائي ليست سيطرة أو جبروتاً أو استعلاء ، وإنما الهدف واضح ذكرناه مراراً من خلال مقرات الشريعة الإسلامية في هذا الصدد وهو تبليغ الدعوة إلى جميع شعوب العالم تحقيقاً لعالمية هذا الدين الحنيف .

هذه المسؤولية الإسلامية عند طرحها على أرض الواقع نجدها لا تتوجه نحو الفتح الإسلامي لإيصال الدعوة إلى شعوب الأرض فحسب ، وإنما تنطلق قبل ذلك من الحفاظ على دولة الإسلام القائمة بالفعل ضد الأخطار المحدقة ، وذلك بحماية ثغورها وتأمين حدودها ، فهي مسئولية شاملة والجهاد فيها هو حجر الزاوية . بعد ذلك نعرض لما ورد في القرآن بشأن مسالمة الأعداء .

سوف نرى أن آية الأنفال تسمح بقبول الصلح ، وقد ورد فيها الإذن للنبي ﷺ بذلك حتى وأن كانت نوايا الأعداء تتجه إلى جعل المسالمة خدعة تتم فيها تقوية جيوشهم ، لأن المسلمين على الجانب الآخر مطالبون أيضاً بدوام الاستعداد أياً كان حال العدو وأياً كانت نيته ، وعند اللقاء فالله حسب المؤمنين وهو ناصرهم بعونه تعالى إذا استكملوا وسائل هذا النصر وأعدوا له . (أبي بكر الجزائري ، 1979م : ص 85) يقول الله تعالى في ذلك ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية 61_62) .

فإذا قرأنا آية (سورة محمد) وجدنا أنها تحذر المسلمين من التخاذل والهوان وقبول الدنية والدعوة إلى السلم ، لكنها استعرضت الحال التي يرد فيها هذا التحذير وهو كونهم أعلى مكانة وأقوى استعداداً ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (سورة محمد : الآية 35) .

والنظرة السريعة تجد حالين متناقضين ، فمرة يمكّن المسلمين أن يقبلوا الصلح ويقروا المهادنة ، ومرة أخرى يمنعون من ذلك ، وهذا ما دعا بعض العلماء إلى القول بأخذ الرأيين فقط واعتبره الرأي النهائي ورتبه على نسخ إحدى الآيتين للأخرى .

Prince of Songkla University Pattani Campus

فمن قال بإمكان قبول الصلح وبأن ذلك هو التشريع النهائي قال : إن الآية (الأنفال) ناسخة لآية (محمد) ومن قال بامتناع المهادنة قال : إن آية (محمد) ناسخة لآية (الأنفال) .

ولكن بإمعان النظر في المسألة من خلال النصوص القرآنية ذاتها نجد أن الآيتين لم تردا على حال واحد ، بل وردتا على حالين مختلفين ، ومن ثم فلا داعي للقول بالنسخ ، وعليه يمكن فهم مسألة مسالمة الأعداء . وهل هي أمر مقرر على طول الخط أو أنها تجوز في وقت دون آخر ؟ .

فآية سورة (الأنفال) سمحت بقول الصلح ، ولكن بشروط يمكن وضعها من نص الآية :

أولها : أن يكون الداعي هم الأعداء لا المسلمون .

ثانيها : أن يكون هذا الصلح أنسب للوضع العسكري الإسلامي لإعادة بناء الجيش وتقويته ، والآية وإن لم تصرح بذلك فإنه يفهم من قرينة القبول التي تعتبر مرحلية بالنظر إلى طبيعة الجهاد الدائمة لرسم خريطة العالم وفق المنهج الإسلامي ، وربما عدم الإفصاح للحفاظ على عزة المسلمين وقوتهم وتنبيههم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من قوة لا ما هم فيه بالفعل من ضعف .

ثالثها : أن يكون الصلح عهداً موقوتاً ، وقد نقل الآلوسي عن بعض العلماء أنه لا يجوز للإمام أن يهادن أكثر من عشر سنين اقتداء برسول الله ﷺ فإنه صالح أهل مكة هذه المدة ثم إنهم نقضوا قبل انقضائها . (الآلوسي ، د.ت : 37/10) ، وقد وردت الآيات بعد ذلك بأمر النبي بتحريض المؤمنين على القتال .

أما آية (محمد) ﷺ فإنها منعت المهادنة في حالات حددتها أيضاً :

أولها : أن يكون المسلمون هم الذين يدعون إلى السلم ابتداء .

ثانيها : أن تكون دعوتهم إليه في حالة قوتهم وإلا فلا مبرر لقوله تعالى: ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ . (سورة محمد : الآية 35) ثم أن قتالهم ليس قتالاً دنيوياً يهدف إلى التسلط وإنما هو جهاد لنشر الدين .

Prince of Songkla University Pattani Campus

ثالثها : أن يلحقهم الهوان بالدعوة إلى المهادنة التي لا مبرر لها ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ . (سورة محمد : ألاية 35) .

ومن العرض السابق نجد أنه لا تعارض بين الآيتين ، وأن كل آية وردت في حالة غير التي وردت فيها الأخرى ، وأنها حالات تكمل بعضها بعضاً .

وقد حقق المفسرون ذلك تحقيقاً جيداً ، قال الشوكاني[47] عند تفسير الآية سورة (محمد) : " واختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة ، فقيل إنها محكمة ، وإنها ناسخة لقوله ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ (سورة الأنفال : الآية 61) وقيل منسوخة بهذه الآية ، ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ ، فإن الله سبحانه وتعالى نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءاً ، و لم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ،و لم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص . (الشوكاني ، د.ت : 41/5) .

وادعى بعض العلماء التخصيص بالنسبة للآية الأولى فقالوا إنها ليست واردة في شأن المشركين عامة ، وإنما واردة في شأن أهل الكتاب إذا أرادوا المصالحة ودفع الجزية ، ولكن الفهم ا لسابق للآيتين من خلال الحالات الواردة ينفي ضرورة التخصيص ويبقيه احتمالاً مرجوحاً .

وقد عرض الحافظ ابن كثير لذلك وقرر المسألة في اختصار من خلال أقوال العلماء عند تفسيره لآية الأنفال ، قال وهو يعرض بعض الأقوال حولها بعدما ساق بعض الأحاديث فيها : (وقال مجاهد[48] نزلت في بني قريظة وهذا فيه نظر لأن السياق كله

---

[47] هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني ثم الصنعاني ، والشوكاني نسبة إلى هجرة شوكان ــ قرية بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم ــ وهي نسبة والده ،ولد نهار يوم الاثنين 28 من شهر ذو القعدة سنة 1173هـ . توفي بصنعاء سنة 1250هـ . (الشوكاني ، 1350هـ : 481/1)

[48] هو الإمام التابعي مجاهد بن جبر القرشي المخزومي مولاهم ، التتوفي سنة 104هـ ، كان من كبار أعلام التابعين ، ومن الأئمة الذين اشتهروا بالرواية للحديث والآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة الأخيار ، وإن من أهم الجوانب التي اشتهر بها الإمام جانب التفسير ، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب التفاسير بكل أنواعها من النقل عنه .

Prince of Songkla University Pattani Campus

وقعة بدر وذكرها مكتنف لهذا كله ، وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهم من أئمة التفاسير أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (سورة التوبة : الآية 29) . الآية وفيه نظر أيضاً لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه الآية الكريمة وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم . (ابن كثير ، 1417هـ : 2/ 322_323) .

وهكذا تتضح قضية مسالمة الأعداء ، ومتى تجوز ، فإذا كان المسلمون في قوة وجب الاستمرار في الجهاد لنشر الدعوة ، فلا صلح ولا إقرار على الشرك ، وإذا كان الأمر غير ذلك جاز قبول الصلح تحرفاً لقتال وتحيزاً لفئة وتقوية لجيش وإعداداً لجولة أخرى ، على أن قبول الصلح لا يعنى من قبل المسلمين استمراءاً له ولا استكانة إلى هذا الضعف الآمن أو هذا الآمن الضعيف المهدد كما يحدث للمسلين الآن في شرق العالم وغربه ، بل على المسلمين أن يسهروا ليلاً ونهاراً على تقوية جيوشهم وإعداد القوة لمجابهة عدوهم الذي هو عدو دينهم ليستأنفوا مرة أخرى مسيرة الجهاد فتحاً ونوراً ونشراً لهدى الله الذي أرسل به خاتم الأنبياء محمد ﷺ . (با هشام بن سالم[49] ، 2001م).

وأيضاً يلزم التنبيه إلى أن كل ما مر يكون في حالة الجهاد التي تنطلق فيها جيوش المسلمين إلى خارج الأقطار الإسلامية لنشر الدعوة ، أما إذا هدد الخطر أرض الإسلام نفسها ودهم العدو بلاد المسلمين ، فالقتال عندئذ _ كما قرر العلماء _ يكون فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، الرجال والنساء حتى الشيوخ والأطفال تلك هي عزة الإسلام وعزة أهله التي ندعو الله تعالى مخلصين أن يعيدها لهم ، ولكي يتم ذلك لهم ينبغي أن يكونوا لها أهلاً بإقامة أركان دينهم ، والعودة إلى ربهم ، وجمع كلمتهم ، وتوحيد صفوفهم .﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(سورة المنافقون : الآية 8) .

---

[49] باهشام بن سالم _ مقال بعنوان فقه التنزيل والاجتهاد الجماعي _ من الموقع www.Islamonline.net

Prince of Songkla University Pattani Campus